جمعتني به أكثر من مناسبة . . قام بعد صلاة الجمعة وألقى كلمة تحدث فيها بالعربية الركيكة، لكنها معبرة عن الجهود التي يقوم بها مع إخوانه لصد زحفٍ عاتٍ يتزعمه دب أحمر ويسهم فيه كثيرون ممن أغواهم هذا الدب الأحمر. . وألتقي به في مجلس مقصور وأراه مرة أخرى يتحدث وباللسان العربي الركيك المعبر في الوقت نفسه عن مسيرة الجهاد في أفغانستان، وهو الشخص الذي يفضل أن يكون هناك بدلاً من أن يرتاد المجالس . . ولكنه هنا لغرض وجلسته هنا ضمن هذا الغرض . . وعندما يتحدث فهو يتحدث بلسان الواثق المصمم السائر على الدرب . . فهو ينظر أمامه أحد أمرين كليهما حسن، فإما أن يخرج الدب الأحمر من بلاده ويرفع عليها راية الإيمان، وإما أن يموت دون ذلك فتكتب له الشهادة . .

من خلال حديثه تلحظ أنه يعطيك الانطباعية أنه، ومن على شاكلته من أناس بسطاء في حياتهم، رحماء بينهم، أحرج إحدى أكبر قوتين ماديتين في العالم . . يجذبك جذبًا عندما يعطيك من تفاصيل الجهاد ما يجعلك تتساءل حقًا: هل يعيش هؤلاء في عالمنا: عالم اليوم أم أنهم يعيشون في عالم آخر . . ؟ فأساليبهم في القتال وأساليبهم في العيش تشعرك بأنهم يعيشون عالمًا آخر بعيدًا عن الجو الذي تعيشه بقية الأمم . . فأساليبهم في القتال مع قوة عظمى إنما بدأت في استخدام السلاح الأبيض واستخدام بنادق قديمة علهم اختزنوها منذ عهد الإنجليز الذين نالوا منهم ما لم ينله مستَعْمِر من مُستَعْمَر، ثم يتطور أسلوبهم في القتال حسب ما يحصلون عليه من أسلحة ثقيلة زودهم بها عدوهم بعد أن غنموها منه عنوة واقتدارًا . . أما أساليبهم في العيش فتزيد فيك ذاك الشعور، إذ إن ما تتمتع به كثير من الأمم من توافر في مواد الغذاء قد لا يكون متاحًا لهؤلاء، إذ الغذاء يوزع عليهم بشكل محدود

وربما عاشوا على الخبز اليابس أيامًا وذلك لضيق ذات اليد عندهم.

■ وفي ساحات القتال يدور شيء عجيب يدعو إلى التوقف عنده وتأمله.. ويكثر العجب عند الذين لايملكون خلفية تاريخية عن مسيرة الجهاد الإسلامي منذ بزوغ الإسلام والإذن بالقتال في عهد الرسول ﷺ. فالذي تنقصه هذه الخلفية ربما وقف حائرًا وربما شكك فيما يدور في أفغانستان من خوارق للعادة وقوانين الطبيعة هناك. فما رأيك في صاروخ أرسل من الجو إلى الأرض ليدمر معسكرًا للمجاهدين فينزل هذا الصاروخ وسط المعكسر ويغوص في جوف الأرض ليخرج الماء في وقت كانوا فيه بحاجة إلى الماء..! ويلجم هذا التوفيق من الله للمجاهدين الكثير من خبراء الحروب ومرتادي غرف العمليات، خاصة في وقت تساهم فيه التقنية الحديثة في صنع أدق السلاح الموجه بواسطة العقل الآلي عن بعد، فيقف الجنرالات حيارى ومعهم يقف محللو الحروب.. ويعجب آخرون أن تصاب دبابة بالهوس فتدور على صويحباتها فترديهن واحدة تلو الأخرى.. وآخرون يذهلون عندما تنطلق رصاصة من بندقية بدائية في يد رجل مؤمن على ناقلة للوقود ضمن قافلة مقاتلة فتنفجر الناقلة وتفجر ما حولها ومن حولها، مع أن رصاصة الرجل المؤمن لم تقصد الناقلة إذ لم يعلم الرجل أنه كان يصوب على ناقلة وقود. والشظية تصيب الجندي الروسي بخدش بسيط فيقيم الدنيا ويقعدها من الألم، والمجاهد تقطع رجله فيحزن أن الأمر أصاب رجله ولم يصب رقبته فيموت شهيدًا..

■ وتتواتر الأخبار ممن ذهبوا إلى هناك وعادوا بمثل هذه الحكايات، فيتوقف البعض عندها كثيرًا، على اعتبار أنها أمور خارج حدود المعقول، وقد تعود الكثيرون على التوقف عندما يتعدى المعقول توقفًا متشككًا، خاصة في زمن سيطرت فيه الحواس على الجوانب الأخرى وأصبح الشيء يقاس بمدى

تعقله فيرفض البعض حوادث (اللامعقول) . . والواقع أن بعض الذين لم يعيروا العقل الاهتمام الزائد على أنه هو المقياس يدركون أن هذه الحوادث حدثت وتحدث في التاريخ الجهادي في الإسلام ولا يستطيع أي شخص أن يغفل أن الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين المجاهدين في سبيل الله . . فهي حقيقة صاحبت جميع الأديان وصرف الله بها أنبياءه ورسله وأولياءه، ولكن في هذا محاولة إلى تقريب الجو الذي يعيشه هؤلاء المجاهدون والتأكيد على أنهم يحاربون وحدهم . . كما أنهم بحاجة إلى من يقف معهم في محنتهم هذه ويتفهم قضيتهم، وأنهم إنما يحاربون عدوًا مشتركًا . . وهذا يدعونا إلى التأكيد على أن هناك محاولات من جوانب متعددة ذات أغراض معروفة تحاول إضفاء شيء من عدم الاكتراث على ما يقوم به هؤلاء بحجة أن الأمر قد أعطي أكثر مما يستحق من الدعاية، فوقت يذكر فيه مجموعة من قادة الجهاد والمهتمين به أن الأمر لم يأخذ القدر الكافي من الدعاية والدعوة له، في وقت وصلت فيه قوات أعدائهم إلى مائة وخمسين ألف جندي (١٥٠,٠٠٠).

■ أما عن الدعاية لهم فقد تكفلت بها أكثر من جهة في الدول الكبرى ذات المطامع الاستراتيجية، حيث إن كل جهة تنظر إلى القضية من هذه الزاوية التي تخدم أهدافها هي، فالدعاية الغربية على اعتبار أنها مناوئة للمعسكر الشرقي تعطي الانطباعة أن الجهاد القائم الآن بعيد عن الفكرة الدينية رغم أن الأفلام التي تعرض ــ خاصة في التليفزيون ـ تتضمن الصلاة والدعاء والتكبير في أكثر من مناسبة، ويذهب المحققون الإخباريون ويعودون بحصيلة إخبارية دسمة يتنافسون في عرضها على المشاهدين . وقد حدا هذا التنافس بأحدهم إلى أن يعيش مع المجاهدين في المعركة وينقل صورة حية لما يجري هناك، فكنت تسمع الهلع في تعليقه الذي كان يتأثر بما يدور حوله من قتال، إلا أن المحقق رفض أن يعطي القضية الصبغة الدينية، والجدير ذكره هنا أن

مثل هذه التحقيقات الحية أحدثت ضجة في عالم الإعلام الغربي بالذات، ولعل هذا الأسلوب هو أحد الدوافع التي جعلت من المحقق ويدعى (دان رادر) رجلَ الأخبار الأول في المجتمع الأمريكي الذي تغطيه أربع شبكات تلفزيونية كبرى.

إلا أن الجانب الثقافي العميق في المجتمع الغربي يتعاطف مع الأفغان الرافضين للشيوعية فتجرى لهم اللقاءات وتعقد الندوات، ويقوم الكثيرون بإعداد الدراسات والبحوث العميقة التي لا تستطيع إغفال أن الشعب الأفغاني بمجمله شعب مؤمن يرفض استقبال أية ثقافة أو قوة غريبة عليه وعلى إيمانه، ومع هذا فهناك من يستغل هذا الموقف ويستفيد من وراء هذه الدعاية مديًا.. وكثيرًا ما نبه المجاهدون على وجود محتالين صوروا الجهاد الأفغاني بصور قريبة من العقلية الغربية فنالوا شيئًا من القبول.

■ أما المتعاطفون مع الروس فإنهم ينظرون للقضية على أنها لا تتعدى تلبية الروس لدعوة الحكومة في التغلب على مجموعة من الأشخاص ـ وهم قلة ـ يريدون إثارة القلاقل في البلاد وزعزعة الأمن، وقد واجهنا بعض هؤلاء في أكثر من مناسبة، وكانوا مصممين على رأيهم رغم محاولتنا إعطاء صورة واضحة لهم، وهم على كل حال قلة من الرجال يكتنفهم المجتمع الغربي.. والعجيب حقًا أن مجمل الروس ـ المدنيون منهم والعسكريون ـ يعرفون الوضع على اعتبار أنهم هم الذين يعانون مباشرة من القضية حيث يتكبدون الخسائر ويفقدون الرجال دون أن يصلهم خبر فقدهم، حتى يقال إن رسائلهم التي يرسلونها إلى أهلهم لا تصل إلى الأهل.. وعلاج مصابيهم يتم في مستشفيات الدول الحليفة للروس بعيدًا عن الأهل، خشية معرفة مقدار خسائرهم البشرية، وهو أسلوب خبيث يعرف به هؤلاء الملحدون، وهذه الحقيقة ينقلها بعض الذين ينضمون إلى صفوف المجاهدين من الجنود العاملين في صفوف

حكومة كابول، أو الجنود الروس . .

وقد كان قادة الروس يعتقدون أن المسألة ستنتهي في فترة ليست بالطويلة ولكن الواقع أنه منذ بدء القتال في بداية عام ١٤٠٠هـ نهاية عام ١٩٧٩م والروس يعانون معاناة واضحة من ضياع في النفوس والعتاد، وتدهور في سمعة بلدهم وفي سياستها الخارجية، إذ إن القوم قد تورطوا ورطة ما بعدها ورطة . ! ويذكر في أكثر من مجال أن هناك محاولات جادة للخروج من هذا المأزق بأسلوب يحفظ ماء الوجه إن كان قد بقي في الوجه ماء . لكنّ ظروفًا معينة تحول دون ذلك تفرضها استراتيجيات متفق عليها، تخدم مصالحهم ومصالح الغرب . .

■ والسعوديون وأهل الخليج ـ عمومًا ـ يقفون مع هؤلاء المجاهدين وقفات مشهودًا لها على أوسع نطاق، فهم يجاهدون معهم بأموالهم، وهناك الرسميون الذين وقفوا على ساحات القتال وزاروا مخيمات اللاجئين، وجادوا بما أمرهم الله به، وغيرهم من المسؤولين تبنوا فكرة جمع المال ودعوا إليه وشجعوا عليه وساهموا فيه، وترصد الصحف المبالغ التي تصل المسؤولين إثر دعواتهم من كثير من أهل الخير أغلبهم فاعلو خير، وتصل الأموال إلى أيادٍ أمينة موثوقة، ويستعمل أسلوب إيصال الأموال بطريقة المناولة تحريًا لوصولها إلى أهلها بصورة مباشرة . .

ومن جهة أخرى فقد فُتِحت بلاد الخليج عمومًا للرسميين المجاهدين للزيارة وإلقاء الكلمات والخطب والمحاضرات في شتى المجالات، إذ تراهم في المساجد يخطبون، وتراهم في المؤتمرات يشاركون على أنهم جهة معتبرة، فيلقون فيها المحاضرات والكلمات التي تبين وجهة نظرهم حول القضية ويحتفي بهم أهل هذه البلاد وينظرون إليهم نظرهم إلى الأبطال، ويتوسمون فيهم شخصيات إسلامية كان لها دور بارز في تغيير مجرى تاريخ

الإنسانية عمومًا، فلعل هؤلاء ومن اتفق معهم خير خلف لخير سلف.

■ ويخطيء من يعتقد أن هذه القضية قد صرفت الأنظار عن قضية العرب والمسلمين جميعًا والمتمثلة في القضية الفلسطينية وقضية المسجد الأقصى، فالذي يتتبع مسيرة الجهاد في أفغانستان يلحظ أن المسألة مكملة للأخرى، **إذ يصر المجاهدون على أن الخطوة القادمة والتالية لقضيتهم هي توجههم لفلسطين والدعوة إلى تحريرها عمليًا، مع أنه من الملاحظ أن القضية الفلسطينية لا تزال قائمة والقتال داخل فلسطين لا يزال قائمًا؛** لأن القضيتين هما قضيتان إسلاميتان.

■ ويواصل الأفغانيون التمسك بموقفهم الواضح ويواصلون إصرارهم على عدم التفاوض مع الروس أو مع من يمثلونهم، ويواصلون رفض أساليب الوساطة بين الطرفين، فيحاول الروس التخلص من قادة المجاهدين بأية وسيلة، ولكن تبوء جميع وسائلهم بالفشل دائمًا كلما تكررت.. وهي تكرر، فقد رسموا خطة للتخلص من القادة والمؤثرين واحدًا بعد الآخر. ولكنّ المجاهدين ماضون في طريقهم، وكان الله في عون الجميع.